الفصل الثاني

مَنْ كان يُصَدّق أن من حكم مصر ثلاثين عامًا يزول هكذا عرشه..

كانت أيامًا مُتتابعة قاطعة؛ بدأت بيوم الغضب إذ خرج من القاهرة – فجأة - ومعظم المحافظات إلى الميادين والشوارع أُلوف المتظاهرين يطالبون برحيل حكومة نظيف؛ كانت المُفاجأة آخذة؛ تَحَوَّلَ يومُ الخامس والعشرين من يناير، يوم عيد الشرطة، يومًا للاحتجاج العام؛ تجمَّع البَعْضُ في شارع جامعة الدول العربية بالمهندسين، وساروا في مجموعات منظمة، متجهين إلى شارع البطل أحمد عبد العزيز في اتجاه الدقي، وصولًا إلى كوبري قصر النيل؛ حاولت قوات الأمن مَنْعهم ففشلت بعد انضمام المئات إليهم، وتزايدت الأعداد وهم يرددون:

بلادي بلادي بلادي لكِ حبي وفؤادي

مصر يا أم البلاد أنت غايتي والمراد

بينما هتف البعض: تونس هي الحل؛ مصر زيّ تونس، يسقط كل فاسد...

كانت الدعوة ليوم الغضب قد بدأت بمبادرة من بعض الحركات الاحتجاجية والقوى السياسية المعارضة بعد ثورة تونس؛ اختار الدَّاعون يَوْمَ عيد الشرطة للتعبير عن غضبهم؛ وكان جهاز أمن الدولة قد أنبأ أن هناك دعوة لمظاهرة مليونية يوم الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١م، فاستجاب للدعوة حركة كفاية وشباب ٦ أبريل والاشتراكيون الثوريون؛ وعدد من الأحزاب، وبعد يومين جماعة الإخوان.. وحتى اللحظة كان دور الأمن دورًا حضاريًّا؛ فرجال الشرطة يسيرون أمام وخلف المتظاهرين لِيَتِمَّ الحَدُّ - قدر الإمكان - من انضمام متظاهرين جُدُدٌ، والجنود لا يعرفون ما الموضوع؟! وضباطٌ كِبارٌ يلهثون خلف المتظاهرين يمسكون بأجهزة اللاسلكي آملين في التوقف حتى يرتاحوا فيعودوا إلى منازلهم، ومتظاهرون يهتفون من قلوبهم قبل حناجرهم؛ بينما البعضُ يحمل للجنود باقاتِ وُرُودٍ.

كانت قيادات شرطية تقف على جانب الطريق يشيرون للمتظاهرين بأيديهم الحُرَّة من أجهزة اللاسلكي بسرعة السير وعدم التوقف والعبور؛ توقفت حركة السير تمامًا فوق كوبري قصر النيل، وتمَّ منع السيارات من السير فوق طريق الكورنيش في اتجاهي المعادي وماسبيرو حيث مبنى الإذاعة والتليفزيون؛ وحاول المتظاهرون الوصول إلى جامعة الدول العربية لكن قوات الأمن منعتهم، وكانت قوات الأمن قد أقامت حاجزًا أمْنيًّا أمام المتحف المصري إلا أن المتظاهرين اخترقوه، وقطعوا طريق شارع التحرير، فأوقفوا حركة السير تمامًا وهم في طريقهم إلى مجمع التحرير.. وهناك، في الساحة المقابلة لِلمُجَمَّعِ، حاصر الآلاف من قوات الأمن، وقوات

مكافحة الشغب، والشرطة المتظاهرين ومنعوهم من النزول إلى الشارع؛ فتَحَوَّل ميدان التحرير في القاهرة إلى ساحة حاشدة للتظاهر تصاعدت فيها هتافات ضد الحكومة، والبطالة، والفساد، وضد الفقر.

تابع مُجاهِدُ المشهد يكتم أنفاسه.. واستفسرت زوجته دَهِشة عمّا يجري وهما يشاهدان التلفاز؟! قال:

- لا أدري؛ سَمِعْتُ من زميل معي في الإدارة أنه ذاهب بعد الخروج من العمل لوقفة احتجاجية يطالبون فيها بالتغيير..

بالفعل كان قد تظاهر في ميدان مشعل بالمنصورة نحو ألفي مواطن ينتمون لحركة ٦ أبريل، والجمعية الوطنية للتغيير، وحركة كفاية، وحَزْبِ النَّاصري، والوفد، وبعض المواطنين، وبعض شباب جماعة الإخوان رافعين لافتات تحمل شعار انتفاضة مصرية وصورًا لوزير الداخلية كتبوا عليها: حَاسِبُوهم... مصر عاوزة الحرية.. يا حرية فينك فينك.. أَمْنِ الدَّولة بيني وبينك؛ وردَّدوا هتافات: باطل، باطل؛ لمجلس الشعب المنتخب، وانتقلت المظاهرة من ميدان مشعل إلى شارع بورسعيد وسط المدينة وردد المتظاهرون نشيد:

بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي

وكلاعب وسط مجيد انتقلت كاميرا التلفاز إلى محافظة السويس؛ ميدان الإسعاف حيّ الأربعين؛ فشاهد مجاهد وزوجته المئات في مظاهرةٍ؛

فظهرت بمداخل الميدان عربات مصفحة تفرض كردونًا حول المظاهرة تمنع التحرك سيرًا بالشوارع لمنع استنفار مواطنين جُدُدٍ؛ ورفع المتظاهرون لافتات تطالب بفَرْضِ الدّيمُقْراطية، وتخفيض الأسعار، والتحذير من تكرار تجربة الشعب التونسي في مصر، والتذكير بمصير حاكم تونس الهارب الآن إلى دولة السعودية..

وانتقلت الكاميرا إلى محافظة الإسماعيلية تجلي للناس تظاهر المئات بميدان الفردوس؛ وسط المدينة، والأجهزة الأمنية التي كثفت من وجودها بالميدان في تشكيلات مختلفة للتأمين، تمنع المظاهرة من الالتحام بالشارع.. استمرت المظاهرة هنا قريبًا من الساعة دون احتكاكٍ بالأمن؛ وكذا في الإسكندرية، وبورسعيد، ومعظم المحافظات.

وفي صعيد مصر ظهرت وَمَضاتٌ احتجاجية غاضبة؛ فاضطرت الشرطة، وقوات الأمن المركزي إلى الاحتفال بعيدها بشكلٍ جديدٍ عَمَّا اعتادته منذ اتَّخَذَت يوم الخامس والعشرين من يناير عيدًا لها؛ أنفقت يومها ولَيْلتها بالعراء؛ كان مشهدًا متكررًا في كل ربوع مصر، في الميادين ذلك الوجود الأمني المكثف منذ الصباح الباكر؛ سيارات أمن مركزي، وعربات مصفحة، وعربات إطفاء.. ظل الأمن سيد الموقف حتى الثالثة بعد الظهر، امتنع عن استخدام القوة لتفريق المتظاهرين؛ ولمَّا بدأ باستخدام خراطيم المياه، وإلقاء القنابل المسيلة للدموع لتفريق المتظاهرين؛ وقعت الاشتباكات..

فقال مجاهد لزوجته، وهما يريان المشاهد عبر برنامج تليفزيوني مسائي شهير متعاطفًا مع الشرطة:

- رسالة هؤلاء وصلت؛ ولم يعد مبررًا لبقائهم في الشوارع..

وانطلقت المذيعة الأشهر في مصر تُجادِلُ ضيفها عن الاستخدام المفرط للقُوَّة:

- يا دكتور! أليس الاعتصام حق يكفله الدستور والقانون؟

- لكن؛ حرية التعبير، وحق التظاهر الذي يكفله الدستور يُنَظّمُهُ القانون، يجب أن تُخْطرُ السلطات بوقتٍ كافٍ عن مكان التظاهر، وتُؤخذُ الموافقات، وتحدد السلطات مكانًا آخرًا للتظاهر بما لا يعيق حركة المرور في الشارع، أو يضر بمصالح الآخرين.

فانطلقت المذيعة من فرط المفاجأة في ضحكتها المجلجلة ذات الرجع الفضي:

- إذًن تختار لهم السلطات أماكن نائية حيث لا يَحِسُّ بهم أحد؛ وتظهر الحياة عادية، وكأنَّ لا وجود مطلقًا لتظاهرةٍ بالشارع.. قال:
- يا أستاذة منى، وسائل الإعلام الآن تلهث وراء كل الأحداث، تصل كاميراتها إلى كل مكان في العالم. فاستنتقطة بسهم عينيها الأخَّاذتين:

- يا دكتور! الشوارع معطلة، معطلة؛ وهؤلاء خرجوا للتعبير عن مصالح الكافة؛ أفلا نحتملهم نُحنُ لبعض الوقت، فنترك الخاص من أجل العام لبعض الوقت لإحداث إصلاحٍ وتغييرٍ؟! قال:
- أكيد الرسالة وصلت للمسئولين؛ فلينتظر هؤلاء بعض الوقت، فيُعْلَمَ كيف تكون الإجابة.. فمضت تستدرجه:
- يا دكتور! هؤلاء المواطنون يتواجدون بهذه الكثرة في جميع الميادين بالمحافظات منذ الصباح الباكر، ولهم مطالب مشروعة؛ بُحَّتْ لها حناجرهم اليوم ومن سابق، وحتى الآن لم يطلّ عليهم مسئول فيجيبهم، أو يَمُدُنا بالمعلومات عَمَّا يحدث فنطَّلع بالأمر! يا دكتور؛ أين رئيس الحكومة؟!
- نعترف أن القرار السياسي بطيء للغاية؛ لابد أن تخرج القيادة السياسية تتحدث إلى هؤلاء؛ تطمئنهم أن الرسالة قد وصلت؛ وأنه ستكون هناك استجابة لتلك المطالب.

كانت مقدمة هذا البرنامج الأشهر في مصر، هي الحَظِيَّةَ الأولى لدى مجاهد والأكثرين؛ لحضورها القوي، ولِمَا وهبت من صوتٍ فضّيٍّ رنَّان وملاحة وجه؛ وللغة التي تحاول انتقائها؛ وإشارات لطيفة تُرْسِلُها إلى جمهورها تسترضيهم وتحرّضهم معًا، وكانت تستطيع دائمًا ضبط نفسها؛ تعرف كيف تَقْربُ عش الزنابير وترجع آمنةً، لا تقترب - أبدًا - من شخص " مبارك "؛ تجاهد وُسْعها عدم ذكر اسمه في حواراتها؛ وكان مجاهد يرى: أنها تتجنب ذلك؛ لأنها لو فعلت لن تنفك عن استخدام عبارات التعظيم

والتوقير لمبارك، وأن ذلك - في عقيدتها - يُكسِبُه تشريفًا؛ وهو من بات مزهودًا فيه لدى الجماهير، وهي الحظية الأولى لديهم، فيفقدها ذلك شعبية، ومصداقية؛ بيد أنها كانت لها مصادر تَسْتقي منها ما هو مستخفٍ؛ فقد عرضت في حلقة قريبة جدًا قبل وقوع هذه الأحداث؛ وكأنها تمتلك جهاز استشعار حصيف؛ وكان موضوع الحلقة: "الخطبة الأخيرة لزعماء دارت الدائرة على كثير منهم".. وكأنها تبشر بقرب رحيل مبارك؛ وكان قبل الأمس قد أطلَّ على الناس في عزةٍ شارعًا صفحة وجهه؛ يتابع وزير داخليَّته الذي يزهو بين يديه كطاووسٍ؛ وظل "مبارك" ينظر إلى وزيره في وجومٍ وعُلُوٍ؛ وهو يردد في تؤدة:

- سيدي الرئيس.. وعدد انجازات وزارته خلال العام الماضي؛ غير غافلٍ أن يجددَ لسيادته الولاء، والعهد مستقبلًا، والقيام على أمن العباد والبلاد بالأفضل؛ البلاد التي وقاها الله شر الفتن بفضل قيادة سيادته الرشيدة؛ فَنَعِمَ في زمانه بالأمن والاستقرار كُلُّ مواطن على أرض مصر.. وفي النهاية؛ طلب من الرئيس التفضل بالحديث المرتقب؛ احتفاءً من سيادته بأبنائه من قيادات الشرطة، ورجالاتها؛ ضباطًا كانوا، أو جنودًا؛ يعدون سيادته بذل أقصى الجهد، للاستمرار في حفظ أمن المواطن، وتحقيق المزيد من النجاحات؛ تحدث الوزير بملء فيه وبنظرةٍ جريئةٍ؛ وهتف بعبارة سيدي الرئيس مرارًا.. فعلق مجاهد لزوجته:

- أظن هذا - يعني مبارك -؛ لا يخال عليه هذا النفاق؛ العجيب أنه يجلس كصنم؛ وهذا يُوْهِمُهُ بأنه حاميه اليقظ؛ فليطمئن " وإذا أراد اللهُ بقومٍ سوءًا فلا مَرَدَّ له".. فكان بعد ذلك بيومين فقط يوم الغضب؛ فخرجت الجرائد كلاعب كرة مجيد تبشر بوقع الهدف؛ منها من اتخذت هذا العنوان: إنـــــذار؛ جريدة المصري اليوم واستطردت الجريدة: وجَّه آلاف المواطنين رسالة شديدة اللهجة للحكومة في مظاهرات يوم الغضب التي شهدتها القاهرة، ومعظم المحافظات أمس، وطالبوا برحيل الحكومة..الأحزاب يوم الغضب؛ وعَددت: حزب الوفد، والجبهة يشاركان؛ والتجمع يرفض، والناصري مغلق؛ وقالت: بالأمس ميدان التحرير شهد اشتباكات بين الأمن والمتظاهرين، ومحاولات لتفريقهم بالقنابل المسيلة للدموع، إصابة مواطنين ورجال شرطة في اشتباكات محدودة.. البرادعي لوسائل الإعلام: خروج المصريين إلى الشوارع بداية لعملية تاريخية، وثقافة الخوف تحطمت..

كان المدير السابق للوكالة الدولية للطاقة الذرية؛ بعد انتهاء عمله بها؛ وعودته من النمسا إلى مصر، قد قام بتأسيس " الجمعية الوطنية للتغيير " جَمَعَ لها وُجُوه الأعلام، والشخصيات العامة الشهيرة لمناهضة النظام.. ولمَّا صرح لوسائل الإعلام: لم أشارك في يوم الغضب حتى لا أسرق الأضواء من الشباب، انتقده قيادي إخواني:

- لا أؤيد الدكتور/ البرادعي في عدم مشاركته في مظاهرات ٢٥ يناير؛ وكنت أتمنى وجوده، لأن مشاركته سيكون لها عمق لدى شريحة من

الناس، وكان يمكن أن يعتذر لوسائل الإعلام عن الحديث، ويترك الساحة للشباب إذا كان لا يريد أن يسرق الأضواء؛ وأكد الشَّخْص:

- مشاركة البرادعي كانت ستدفع الشباب للمزيد من الوقفات، والاحتجاجات؛ كما أن له حضورًا دوليًّا، وكان عليه أن يكون وسط الشباب!..

وكان البرادعي قد طالب مبارك بعدم الترشح للانتخابات الرئاسية المقبلة، والسماح بتعديلاتٍ ديمقراطيةٍ، تسمح بإجراء انتخاباتٍ رئاسيةٍ حرةٍ، ورفع قانون الطوارئ، والتوقف عن تشويه صورة الإخوان؛ وأنَّه دون ذلك لن يتمكن النظام القائم من البقاء.. وأردف كلاعب رئيس في تحريك الأحداث:

- القول أن الخَيار الوحيد يَكْمُنُ في القمع في عهد مبارك، أو الفوضى، من قبل المتطرفين الدينيين أمرٌ غير صحيح.

أما صحيفة "الأهرام المسائي" الحكومية فقامت كلاعب وسط ظهير مدافع تصف أحداث الأمس: مظاهرات في حماية الشرطة.. الإخوان يحاولون ركوب موجة مظاهرة الشباب السلمي، ويتصادمون مع الشرطة.. وأسفل صورتين؛ لحشدين من الشباب؛ اعتلى منصات؛ أفرادٌ أحيطت وجوههم بدوائر حمراء كالدوائر التي تكون في السيرك؛ وكَتَبَت الجريدة: قادة تنظيم الإخوان غير الشرعي خلال ركوبهم مظاهرات الشباب بالقاهرة، ويظهر في الصورة داخل الدائرة من اليمين فلان، وفلان؛ إخوان أسيوط؛ وكان الأول قد انتصب ببدنه ناشرًا ذراعيه للسماء مُفَرّجًا بين أصابع يديه،

وقد تَبدت نواجذه منتشيًا كلاعب سيرك محترف، يطالع من فوق رؤوسًا زُرِعَ فيهم زرعًا.. وفلان؛ إخوان الشرقية، وفلان؛ إخوان البحيرة، وفلان؛ أحد أعضاء الإخوان في نقابة المحامين، وفلان.. وذيلّت الجريدة بهذا النبأ: مصرع اثنين من الشرطة، وثلاثة متظاهرين، وإصابة مائة من الأمن بينهم نائب مدير أمن السويس، وأربعين مواطنًا.. أعمال تخريب ضد مبنى الحزب الوطني، وإحراق سيارة شرطة، والداخلية تناشد المتظاهرين عدم الانسياق وراء الشعارات الزائفة..

وشَرُّ البَلِيَّة ما يُضْحك!!..

فأسفل كل ما سبق، بين الإعلانات، في الصفحة الأولى للجريدة، صورتين موردتين لوزيرين في الحكومة، وتصريحٌ لهما.. وزير الكهرباء: ٣، ٨ مليار جنيه تكلفة الربط الكهربائي مع السعودية؛ ووزيرة القوى العاملة بوجهها المُورَّد الممتلئ تستشرف للمستقبل: خمسة آلاف فرصة عمل توفرها القوى العاملة الشهر الحالي؛ وكأنهما بتلك الوعود المألوفة سيطفئان نار غضب يوم الغضب..

كان الأمن قد تمكَّن بخراطيم المياه، وبالقنابل المُسَيّلةُ للدموع، من فض مظاهرة يوم الخامس العشرين من يناير يوم الغضب..

الأحداث في الأيام التالية ظلت في إجمالها مثيرةً للحيرة!.. أُبْتُدئ علانية ظهورُ منشورات مجهولة المصدر توزع على المارة في المحافظات في

الشارع تحمل إليهم رسائل كهذه: إن الشباب الوطني الحر الذي تحرك من أجلكم لرفع الظلم عنكم، ورفع شعار: عَيْش - حرية - عدالة اجتماعية، ليستعيد كرامتكم، وعزتكم، ويعيد لمصرنا الغالية مكانتها بين الأمم، فلا تخشون من هذه الثورة فهي سِلْمِيَّة؛ تحافظ على الممتلكات العامة والخاصة؛ وهي حريصة على انتظام، واستمرار العمل اليومي؛ فليشارك الجميع بعد أداء العمل يومي الأحد، والثلاثاء، الساعة الثانية ظهرًا أمام مبنى المحافظة.. فمر مجاهد بمجموعة تحمل علم مصر، تقف على أحد رصيفي الشارع، فتوقف يسمع.. ثمّ حاورهم:

- رسالتكم وصلت؛ اتركوا فرصة للإصلاح، فإن لم يستجيبوا لكم رجعتم إلى الشارع.. قالوا:

- تُصِرُّ الثورة على رحيل الرئيس؛ لأن برحيله سترحل معه ذيول الفساد، والاستبداد، وسياسات البطش، والمعاناة، والبلطجة.. فَدُهِشَ:

- يرحل؟! أتريدونها فوضى ؟! .. قالوا:

- نحن لم نعد نصدقه؛ ثلاثون سنة، وهو يكذب.. قال:

- أليس قد أعلن أمام الدنيا أنه لن يترشح للرئاسة؛ ولن يقدر على التراجع، وإلا خرج عليه الشعب كله الخائر والثائر..قالوا:

- لن نرضى إلا أن يترك الحكم فورًا، ويفوض سلطاته إلى نائبه.

- فلمَّا رجع إلى البيت - وكانت العلاقة بين بيته، وبيت أخيه قد ساءت -؛ وكانت رغبة أخيه، وزوجته، وأحد بنيه غَلق الحضانة؛ وهو ما لن يطيعهم أبدًا، فأَيْقَظَهُ هَرَجٌ، وصراخ أطفال، وعدو فوق السلالم، وفوق السطح فنهض غضبانًا من نومه، وفي هدوءٍ صعد يفاجئهم؛ فرآه الصبيُّ فانقلب لِواذًا إلى السطح؛ فأدركه والصبية التي كانت تعدو معه لم يجلسا، ولزم الباقون أماكنهم، فتوجه إلى

- فقدا مكانهما بين الجميع فظلا واقفين: اللذين

- - أنْتَ وهي؟ ليس هذا ملعبًا؛ أتُزعجان النَّاسَ من نومهم؟ فَخرسا تمامًا؛ فالْتفتَ، والغضبُ يخنقُه إلى معاشر الجالسين الآن في أدبٍ جمٍّ يؤنبهم:

- - وأنتم؛ أعُلّمتم آداب البيوت حتى تدخلونها؛ لستم مُتْرَبّيين. يا عمِ، شيماء وحسام، هما من كانا يجريان وراء بعضهما فوق السلالم وكنَّا نحن الجالسين.. كذلك تحدثت ابنة أخيه تدفع عن نفسها، فأهْملها؛ لأنه سمع حين استيقظ دبدبات كثيرة، وأصوات على السلم، وفوق السطح، ولحظ حذاء ابن أخيه الذي يرغب في غلق الحضانة أمام الحجرة التي أنشأها أخوه فوق السطح، فأحزنه جدًا أن ابن أخيه لم يخرج إلى الأولاد فينهاهم؛ واعتبر ذلك إقرارًا منه لِمَا فعلوه؛ وآذاه بعد نزوله، سَماعُ صوت زوجة أخيه في المطبخ تحدث ابنها الآخر

وتضحك؛ ثم صعدت هي إلى السطح ورفعت صوتها نبرةً مُسْتَنكفة تسمعه:

- الأستاذ لن يجيء؛ انزلوا.. وكان قد مَرَّ على الموعد المعتاد لحضور المُحَفِّظِ أكثر من ساعة؛ وهي الآن تُحدثُ الأولاد لتصرفهم! وسمع بعد نزول الأولاد قرعًا شديدًا للسلالم من حذاءٍ صغير؛ عَلِمَ عند فتح باب شقة أخيه، وانتهاء القرع، ومن الصك الشديد للباب - يسمعه المار بالشارع - أن ابنة أخيه كانت تهبط السُّلم رفق أمها غَضْبَى.. ليلتها عُوقِب؛ لمْ ينمْ ليلته من عدو البنية فوق رأسه، مع مباركة الأمّ، وإقرار الولد الأكبر، فالسقف وإن كان سقف شقته؛ فهو ذاته قعر شقتهم؛ ولهم فيه كامل الحقّ؛ ولأنه عرف من القضايا الأصولية أن درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح، حتى أنهم بنوا على ذلك أن لو تعارض مُباحٌ ومُحَرَّمٌ لَقُدّمَ المحرم.. ولو قلنا في حالتنا هذه (اقتران المفسدة بالمصلحة) وهي هنا المَرَح، استلزم شرع الحكم لها مفسدة مساوية لها، أو راجحة عنها؛ وهي إزْعاج النائم؛ قال يُجادل عن نفسه وهو في قِمّةِ الغضب؛ لمّا ظلت البنية تمرح حتى مطلع الفجر - وكانت المدارس في عطلة نهاية العام - واستطاع تمييز صوت ابن أخيه، وقد ركبه شيطانه، فطفق يلاعب أخته؛ يلعبان الكرة وهما يعلمان أنه يَرْقُدُ أول الليل، ويستيقظ ثلثه الأخير، ليصلي ويقرأ ورده؛ يقيم الليل، إلا أنهما ظلا في عنادهما يلعبان حتى مطلع الفجر؛ فتلك حرية شخصية ما داما يلعبان في

شقتهما؛ فاضْطُرَ أن ينفق ليلته كلها ساهرًا، فصعد عصر اليوم التالي لابن أخيه؛ وكان لم يزل غضبانًا فحاول كبح غضبه؛ وقال يُبَيّنُ له، ويعاتبه معًا:

- البارحة؛ عندما صعدت لأكلم الأولاد، أكنت موجودًا تَسمَعَهُم وهم يجرون فوق السطح فلم تخرج فتنهاهم؟ فَنَدَّ ابن أخيه مُصرّحًا:

- نعم؛ لكنهم أطفالٌ، لابد لهم من اللعب.. فقال في نفسه:

- الآن تأكد لي؛ فتابع يستنطقه:

- لأجل ذلك ظللت ليلة أمس تجري طُوالَ الليل وراء أختك، وأنت تعلم أن الصوت يصل إلينا عبر السقف، لكنها حرية شخصية؛ فأنتما تجريان في قعر شقتكما؟!

- وصوت أطفال الحضانة أيضًا يصلنا؛ والذين يأتونها في الأجازة للمكتب تزعجنا أصواتهم.. قال:

- يَصعد إليك صَوْتُ الأطفال من أسفل البيت إلى الدور الرابع؟! فاستمر ابن أخيه في نبرته الخشنة:

- نعم؛ وكلمني، أيمن، ومحمد رمضان، أن الصوت يصلهم آخر الشارع، ويزعجهم، ولا يستطيعون النَّوْمَ.. فبين له ضابطًا غضبه:

- أمَّا الحضانة، فالدراسة فيها صباحًا، من الساعة الثامنة إلى الساعة الواحدة، وهو وقت قيام عامة الناس في أعمالهم، وهو ذاته وقت خروجكم إلى المدارس، والجامعات.. فقاطعه بالنبرة ذاتها:

- لكن ليس كل يوم نذهب إلى الجامعة، هناك أيام نكون فيها في البيت.. فأهمل مقاطعته، وتابع وهو يوشك أن ينْفجر من شدة الغضب:

- والمكتب الذي نعقده في الأجازة في الحضانة لتحفيظ القرآن، لا يبدأ قبل العاشرة، ويُفْرغُ منه مع آذان الظهر... فاستمر ابن أخيه في جداله:

- في الصيف نحب أن ننام إلى الظهر، وصوت الأطفال الذين يأتون في الصيف للمكتب يصل إلينا ويوقظنا، وأسمعهم في نهاية المكتب، وهم يلعبون، ويحدثون ضَوْضاء شديدة.. فلاذ باللين رجاءَ الوفاق:

- إذن، ننهاهم عن لعب نهاية اليوم، ونأمرهم بخفض الصوت؛ وجاهد في منع غضبه للّهجة الجافية لابن أخيه، والشقاق الذي يَقطرُ منها؛ وقبل كان إذا أراد أن يلفت نظرة إلى شيء تلطَّف له:

- ما رأي حضرتك يا عمَّ في التأخرِ عن متابعة الإمام في صلاة الجماعة؟

وكان يفعلها إذا صلى وراء " أبو سريع " ليتمَّ الركن فيطمأن قدر الطاقة فيتأخر عن المتابعة.. وفي كل مرة كان يبتسم للطفل، فيجيبه، ويبين له الوجه الصحيح، والرأي المختار عنده في المسْألة؛ فانقلب اليوم مُشَاقًّا، تؤازره والدته، أو والديه معًا؛ يريدون إبطال الحضانة التي أنشئت بالدور الأرضي من البيت الشّرك، لأنهم لا يجدون فيها مصلحتهم.. قال:

- أعلم أني لم أعد أعجبك؛ وأنّي إن جلست أحدثك إلى الليل لن تستجيب؛ إنما يعجبك المشاهير الذين يلجون الفضائيات؛ اسْتقِ من المورد الذي يعجبك فهذا شأنك.. فقاطعه ثانية:

- أنا لا أشاهد التلفاز، ولا أجري وراء المشاهير.. قال:

- اعلم أن اللهو من الأمور المباحة؛ أمَّا النَّوم فهو من الضروريات الواجبة، التي لا يجوز الاعتداء عليها، ولو بقراءة القرآن، خاصة في الأوقات الثلاثة.."مِنْ قَبْلِ صلاة الفجر وحِينَ تَضَعُون ثيابكم من الظهيرة ومن بَعْدِ صلاة العشاء ثلاثُ عوراتٍ لكم ليس عليكم ولا عليهم جناحٌ بعدهنّ".. فإن أردت لهوًا في تلك الأوقات، التي يكون فيها نوم الناس، فهناك أماكن مخصصة للهو وليس من حقك، ولو كنت في قعر شقتك أن تلهوَ فيها في تلك الأوقات، إن كان الصوت يصل إلى جيرانك، ويذهِبُ النَّومَ عنهم.. فسكتَ ابن أخيه فلم يرد..

فلمَّا تكرر تَخلُفُ المُحَفّظِ، وتَكَرَّرَ لعْبِ الأطفال؛ طلع إلى السطح فصرفهم، وتحدث إلى آبائهم أن سطح البيت ليس ملكًا خالصًا لأخيه؛ وأنه لا يسمح لأطفالهم بالحضور إليه؛ فالأولاد يؤذونه بقرع نعالهم، حين طلوعهم، ونزولهم يقضون الحاجات؛ فيوقظونه من النوم؛ من يرد أن يعلم ولده القرآن، فليأخذهم إلى بيته، أو يُرْجَعْ بهم إلى المكان الذي كانوا يجلسون فيه قبل مجيئهم إلى سطح البيت؛ فصرف الآباء أبناءهم؛ إلا القليل الذي لم يعتدّ له المحفظ، فأعلم أنه لن يستطيع الحضور لطفلين؛ فجاء أخوه بشيخٍ كبيرٍ، وابن عَمٍّ لهما فأحاطوا به؛ بينما هو في المسجد في مجلس إخوانه يوم الجمعة عقب صلاة العصر؛ وقعد أخوه بين يديه، وقال مستهلًا حديثه:

- أُشْهِدُ الله أني أحبك في الله.

فكان غريبًا من أخٍ أن يجيء ليعلم أخاه بين يَدَيِ الناس بأمْرٍ مُسَلمٍ به؛ فخفض وجهه معتصمًا بالصمت والحلم، وترك أخاه يحكي، مانعًا نفسه من الغضب، وإن آسى أن أخاه أراد بحضوره المفاجئ برفقة هذين؛ ليشهدهما أن الذي يجلس للناس يعلمهم القرآن الآن، هو ذاته الذي يصرف أطفالًا، ويمنعهم من الحضور إلى سطح البيت لِتَعَلُمِ القرآن، هم يأتون على أنفسهم؛ يحتملون منه إنشاء الحضانة في بيت هم فيه شركاء، وعلى الرغم من أنَّه لم يُؤْخَذْ رأيهم في الشأن لم يشتكوا؛ رغم أن أصوات أطفال الحضانة طوال العام الدراسي تزعج أبناءه؛ وتشوّش عليهم دراستهم؛ خاصة زمن الامتحانات،

والتحصيل الذي يرتكز عليه جهد العام الدراسي كله.. فتكلم لمّا فرغ أخوه، وإن ضَيَّعَ عليهم الدرس بحضوره المفاجئ ومن معه؛ قال:

- أشكر لمن جاء معك سعيًا لإصلاح ذات البين؛ لكن كيف يأتي للقضاء في شأن من هو قاضيهم في كل شأن؟! أمَّا موضوع الحضانة؛ ففيه مصلحة لأطفال الناس في هذه القرية الخالية من المدارس، ولو كان في الحضانة ولدٌ لك ما طلبت مني إغلاقها.. قال:
- أولادي أحملهم إلى مدارسهم بالمنصورة؛ وشكا لي بعض من يستحْيا منك من الإزعاج.. فَعَنَّفه:
- هم يسْتَحُيون منّي؛ وأنت لا تستحي، تريد أن تغلق الحضانة؟! فتدخل ابن عمه فأنبه كذلك:
- ما استحق العيش؛ من نظر في خاصة نفسه، وخاصة أولاده؛ ولا شيء غيرهما.. وبين مجاهد للحضور؛ أن الحضانة تبدأ في وقت خروج الناس لأعمالهم وتنقضي قبل عودتهم، والمكتب كذلك؛ والأطفال لا يصعدون سُلَّمًا إلى الدور الرابع، ولا يهبطون.. وسأل أخاه:
- ألم يكن مجلس الأطفال في منزل البنات في شقة الوالدة في الدور الأرضي، فما جاء بهم ليصعدوا إلى الدور الرابع إلى السطح؟ وتابع؛ استقدمتموهم إلى السطح عنادًا؟!.. فخرج أخوه عن صمته:

- لا؛ البنت هي من رفضت الذهاب إلى هناك؛ وحاولنا معها كثيرًا، لكنها أصرت أن يأتي الأطفال إليها فوق سطح البيت، وإلا قعدت عن المكتب..

فاستطرد مجاهد:

- إن كان أولادك لا يطيعونك؛ فتلك مصيبة؛ أمَّا أن يجروا إرادتهم عليك فالمصيبة أعظم؛ وأنتم في النهاية تريدون غلق الحضانة رغم علمك، وعلم زوجتك بمشكلة الزوجة عندي، وأن إقامتها كان حلًا للمشكلة؟ ونحن لم نختر المكان بل اختاره بنات أختك.

- وقتها؛ رضينا لأنّ بنات أختك كنَّ يعملن بها؛ ولم يَعُدْن يَعْملن اليوم فيها..

قال:

- تعمل زوجة أخيك، وثلاث من المؤهلات العليا من بنات القرية، وعاملة، وطبيب، وفي ذلك نفع؛ في الظروف السيئة، وحالة البطالة التي تسود البلاد، وأمر اضطررنا إليه نحن كما تعلم؛ أمَّا مكان المكتب الذي كنت تعقده لابنتك؛ فَظَلَّت تذهب إليه لعدة أعوام، ولم تمانع لحضورهم الوالدة؛ فصاح ابن عمه؛ وافد الإصلاح؛ وكان في عمر أخيه:

- لكني أمانع من قيام المكتب عند الحاجة؛ أنا جارٌ لها، ويمنعني الصوت النوم بعد العصر بعد قدومي من العمل، ولا أوافق على هذا الرجوع، فابحثا لكما عن حلٍ آخر! فعلم مجاهد الآن لِما جاء أخوه بابن عمه هذا؛ وتلطف أحد شهود الدرس:

- يا شيخنا؛ فضيلتك لا يأتي الناس من ورائك إلا الخير، موضوع تأخر المُحَفظِ ولعب الأولاد، ممكن أن يعالج بعدم صعودهم إلى السطح إلا برفقة المحفظ، وانتظارهم بالشارع، فإذا جاء صعدوا معه.. فصمت.. فاعتبروا الصمت رضا؛ وفرحوا بالنتيجة.. وقال الشيخ الكبير:

- كذا المركب تسير؛ طالما احتمل بعضكما بعضًا.. وأردف الأخ المتحدث في رضا مجاهد يحرض أخاه على الرجوع لشهود الدرس:

- يا أستاذ فلان، عُد إلى درس شيخنا؛ نأتيه نحن من مسافاتٍ بعيدةٍ، وكنت وأبناؤك تشهدونه معنا إلى ما شاء الله، واستفدنا معًا من هذا المجلس كثيرًا.. فاعتذر أخوه؛ بأنه مستمر في الحفظ مع نفسه كلما سَنَحَ له الوقت؛ فعتب مجاهد على الأخ بنظرة أسى؛ وكان يعلم أن أخاه لن يعود مَهْما اشتد في إلحاحه؛ فالنساء تقتلهُنَّ الغيرة! وقالت النظرة:

- دعه يا شيخ سعيد؛ أتتسوله لنا؟!

* * *

" ولله العزةُ جميعًا "

من كان يُصدّقُ أن وزارة الداخلية؛ المؤسسة الأضخم في مصر تختفي كفَصّ ملح؛ وذاب! من الميدان بعدما ظل الأمْنُ سَيّدُ الموقف أيام الخامس والعشرين، والسادس والعشرين، والسابع والعشرين من يناير؛ ويوم الثامن

والعشرين عقب صلاة الجمعة انطلقت من المساجد، والشوارع، والحواري مئات المظاهرات في جميع أنحاء مصر.. وما من أحد؛ إلا الله يعرف أين ستنتهي؟!

فمن مسجد " مصطفى محمود " في القاهرة؛ خرجت مظاهرة تضم نحو مائة ألف متظاهر في طريقها إلى ميدان التحرير، وفشلت قوات الأمن الضخمة التي أحاطت بالمسجد في الوقوف أمامها، ورغم محاولة الدولة بإغلاقها شبكات المحمول، والإنترنت، وخدمات البلاك بيري إعادة الشأن للوراء؛ فأثار ذلك مزيدًا من الغضب، وانطلقت أضخم مظاهرة احتجاجية شهدتها مصر في تاريخها الحديث؛ تقهقر ضباط، وجنود الأمن المركزي إلى الوراء جماعات أمام هذا الطوفان بعد محاولة صَدٍّ فاشلة، فاضطروا إلى خلع ملابسهم الرسمية، وذابوا في حشود المتظاهرين؛ كفص ملح؛ وذاب!!

وفي الإسكندرية، رفض عدد كبير من ضباط الشرطة تنفيذ الأوامر بإطلاق الغاز المسيل للدموع على المتظاهرين؛ وفي الجيزة كان نحو من ثمانين سيارة أمن مركزي، ومصفحة قد حاصرت مسجد الاستقامة منذ الصباح الباكر استعدادًا لمواجهة المظاهرة التي يقودها "البرادعي" ومنعته من الخروج من المسجد؛ وكان قد طالب "الرئيس" بالاستجابة لمطالب الجماهير؛ وإجراء تغييرات فورية؛ وأنه مستعد لقيادة مرحلة انتقالية في مصر..

وهرولت الأحداث؛ فبعد انصراف النساء؛ هَرعَ إلى مجاهد من إدارتين متجاورتين ثلاثة من الزملاء، بينهم "مخيول"، وزميل في الحزب الوطني

مُنهزمًا، فسعى الزميلان في إثْرِهِ يطاردانه؛ وكان قد احْتد نقاشهم بسبب خطاب الرئيس فلاذ منهم إليه:

- احْكُمْ أنت يا شيخ مجاهد..السيد الرئيس أعلن في بيانه للشعب عن تشكيل وزارة جديدة، بتكليفات محددة، وعن مزيد من الديمقراطية، والحريات، ومحاصرة البطالة؛ فأصبح الناس لا يعجبهم شيئًا!.. فَهتف الزملاء في نفس واحد:
- الشعب يريد إسقاط النظام.. وطالبوه بحَلّ مجلس الشعب المزَوَّر، ومجلس الشورى.. فعاونهما مخْيول بمزيد من الطلبات:
- وإجراء تعديلات دستورية فورية تتيح لكل من شاء أن يترشح لرئاسة الجمهورية.. فلاذ عضو الحزب الوطني بمجاهد:
- أخبرنا أنت يا شيخ.. كيف يطالبان بحل مجلس الشعب، ومجلس الشورى؟! وفي ذات الوقت يطالبان بإجراء تعديلات دستورية؟ لن يتأتى ذلك والمجلسين مُنحلين! فمن يصدق على التعديلات الدستورية؟! هذا تعنت.. فعَدَّلوا من طلباتهم؛ وكأن الحل، والعقد بات بأيدي هؤلاء النفر الثلاثة:
- يِحلّ مجلس الشعب والشورى، ويعلن أنه لن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية، لا هو ولا ابْنه، ويتخلى عن رئاسة الحزب الوطني.. فقال عضو الحزب المنهزم:
- السيد الرئيس عنيد، ويرفض التهديد، وقال: هناك مخطط لزعزعة الاستقرار، والانقضاض على الشرعية.. وتابع يلوذ بمجاهد:

- أخبرنا يا شيخ؟ أي فوضى أحدثوها؟ نهب وحرق؛ وهو ما حَذَّر منه السيد الرئيس؛ بادرت الشرطة إلى حمايتهم قبل أن تتحول التظاهرات لأعمال شغب تهدد النظام العام، وتعيق الحياة اليومية.. السيد الرئيس أعلن: أن خيطًا رفيعًا بين الحرية، والفوضى؛ وحذر من مما يحيط بنا من أمثلة انزلقت بالشعوب إلى الفوضى؛ فلا ديمقراطية حققت، ولا استقرار حفظت.. واستبسل في استنصاره:

- يا شيخ، المتظاهرون حرقوا مقار الحزب الوطني في عدد من المحافظات، بخلاف مجمع المحاكم بالقاهرة.. ففاجأه مجاهد:

- وأنتم، أين كنتم أعضاء الحزب الوطني عندما فُعِلَ بمقار حزبكم ذلك؟! قلتم إنكم ثلاثة مليون عضو، بخلاف عائلاتكم؟؟

- يا شيخ، لو خرجنا لوقعت مذبحة.. ونشط لمَّا رأى منه إنصاتًا؛ ألم يرفعوا منذ البداية لافتات سلمية، سلمية؛ فلمَّا غابت الشرطة بان قصدهم؛ أخذوا في إشعال الحرائق والتخريب؛ كانت دعواهم، عيش، حرية، عدالة اجتماعية، كرامة إنسانية؛ فظهرت الصورة جلية؛ نهب، وفوضى، وحرائق، ومخطط لزعزعة الاستقرار، والانقضاض على الشرعية!.. السيد الرئيس بحكم مسئولياته لن يتهاون في اتخاذ قرارات تحفظ لكل مصري، ومصرية أمنهم؛ وسيدافع عن أمن مصر، واستقرار البلاد.. فردّه لتمسحه بالرئيس:

- أنتم، شِلَّة منتفعين؛ لما ذهبت مصالحكم ذهبتم مستخفين!.. فأنبأ العضو في انكسارٍ:

- يا شيخ؛ جاري الإعداد لمظاهرات حاشدة في جميع المحافظات لتأييد السيد الرئيس.

تلك الآونة نضح كلٌّ إناءٍ بما فيه؛ فمن مبشرٍ كالأهرام المسائي الأسبوعي، الجريدة الحكومية: إقالة حكومة نظيف.. ارتياح بالشارع بعد سيطرة الجيش؛ وأسفل عنوان المؤامرة، كتب رئيس التحرير: البيان الذي وجهه أمس الرئيس حسني مبارك إلى الأمة، وضع الكثير من النقاط على الحروف؛ أسقط أوراق التوت عن عورات المخربين، والمحرضين؛ وخلع الأقنعة عن الوجوه المشوهة للمدَّعيين، والمزايدين، والمنتفعين، والذين في قلوبهم مَرَضٌ وغَرَضٌ؛ ولأن الرئيس يؤمن بالرأي، والرأي الآخر؛ فقد شددت تعليماته للحكومة على إتاحة الفرصة أمام المتظاهرين للتعبير عن آرائهم ومطالبهم، إلا أن البعض استغل ذلك، وحاول ركوب الموجة، والمتاجرة بشعارات المظاهرات..

أمَّا جريدة الدُّستور المعارضة، فبشرت يوم التاسع والعشرين من يناير: التغيير قاادم.. قاادم..مصر كسرت حاجزًا للخوف.. وإعلان حظر التجوال.. معارك بالرصاص الحَيّ في شوارع السويس، وإحراق ٧٠ سيارة شرطة..

سقوط أول شهيد في جمعة الغضب بميدان عبد المنعم رياض.. فودافون: السلطات الأمنية أجبرتنا على وقف خدمات المحمول..أنباء عن تهريب ١٠٠ مليار جنيهٍ لـ ١٠ رجال أعمال بارزين في الحزب الوطني٠٠ فلان للدستور: لابد من إصدار قرار رئاسي فوري بتغيير الدستور، وتحقيق جميع مطالب الديمقراطية؛ لم يعد هناك وقت..

وتحولت المسيرة السلمية التي كان قد دعا إليها عدد من المدونين على مواقع الفيس بوك يوم جمعة الغضب، إلى حالة من الفوضى بعد انسحاب الشرطة، وقيام عناصر خارجة على القانون بالسطو، والهجوم على بعض البنوك، والشركات، والمحلات المختلفة؛ وسرقوا ما فيها من أموال وبضائع؛ فجاء قرارُ الحاكم العسكري:

- نظرًا لما شهِدته بعض المحافظات من أعمال الشَّغْبِ، والخروج على القانون، وما شهدته من أعمال النهب، والتدمير، والحرق، والاعتداء على الممتلكات العامة والخاصة، بما في ذلك بعض البنوك، والفنادق؛ أصدر الحاكم العسكري قرارًا بحظر التجول بمحافظات القاهرة الكبرى، والإسكندرية، والسويس من الساعة السادسة مساءً حتى الساعة السابعة صباحًا؛ ابتداءً من الجُمُعَة الثامن والعشرين من يناير، ولحين إشعارٍ آخر...

وبالليل؛ عندما رجع مجاهد فجلس إلى التلفاز؛ تحدث أحد المواطنين مع مراسل القناة الأولى:

- هذا وقت تكاتف المصريين؛ ينبغي لكل مصري أن يساهم بأي مصلحة لهذا الوطن.. وقال يصف المشهد بعد اختفاء الشرطة من الميدان:
- - بسم الله؛ ما شاء الله؛ الشعب المصري شعب أصيل، في كل شارع تجد اللجان الشعبية المعاونة، نحن هنا نعقد لجنتين؛ نتناوب السهر لحراسة الشارع، نفتش كل دخيل أو مشتبه فيه يريد أن يخترق الحواجز التي أقمناها بالشارع، ومن يضبط على الفور نسلمه للجيش؛ سلاحنا المعاون هو الشّوم، وأمام كل عمارة يَحْرسُ آخرون حتى الصباح معهم أيضًا الشّوم، وبعض الأسلحة الشخصية المرخصة؛ في كل الشوارع تجد الشباب الأشاوس واقفين؛ ناس تنام وناس مستيقظة، البلد هذه بلدنا، مصر بلدٌ عظيم، ليست بلدًا لأحدٍ غيرنا، وهذه سحابة تمر.. فسأله المراسل يضرب بالكرة محيط المتظاهرين:
- ألا ترى أن هناك يدٌ خفية تعبث في أمن هذا البلد؟ وإلا كيف تفسر هذا الاعتداء على الأقسام، واقتحام بعض السجون في آن واحد، وإطلاق سراح المساجين، وإشعال النار في كثير من سيارات الشرطة؟!
- أقول إن هناك مؤامرة على هذا البلد، وأقول لهؤلاء المخرّبين من أبناء هذا الوطن أنتم تحْرِقون مال الناس ومال الشعب.

وانتقلت الكاميرا تصف محلات للملابس الجاهزة خالية تمامًا من الزبائن، ثمَّ انتقلت إلى بائع فاكهة لا يجد من يشتري منه فقام على بضاعته بإعادةَ صفّها لتظهر للرائي في شكلٍ جديد، فاقترب المراسل يتحدث إليه، فقال دون أن يرفع عينيه عن بضاعته التي يشفق عليها:

- خلي البرادعي يفرح والإخوان! فأقبل إلى الكاميرا بائع متجول ليقسم:

- عليّ الطلاق ما كسبت جنيه واحد من ثلاثة أيام.. فعلق المراسل للتلفاز:

- المظاهرات وقفت حال محلات وسط البلد وشبرا.. وعادت الكاميرا إلى المذيعة، فاتصل على الهواء نقيب شرطة لم يفصح عن اسمه:

- عاوزين نُعَرّف سيادة الرّيّس ما تم من خيانة!.. جاءتنا أوامر من القيادات بأن نجلس في بيوتنا لحين ما يبعثوا لنا، فلم يتصل بنا أحدٌ؛ ونحن جالسون في بيوتنا حتى الآن؛ وأريد أن يعْرفَ الرَّيّس ما تم من تزوير في الانتخابات.. كنَّا في الصباح مع المأمور، أقسمنا على المصحف؛ بأنه لا تزوير.. ومشى الأمر تمامًا حتى الساعة الخامسة، فأعطانا المأمور تعليمات بالتزوير؛ وقال: لا أريد مشاكل! جاءه تليفون..

بأن موظفي الدولة في مشهد مرتبك تمامًا؛ كلٌ يرتجل عمله ارتجالًا؛ هذا إن كان الشخص لا يزال يعمل، وبأن بطء المسئولين في اتخاذ القرار.. وغضب مجاهد، وزوجته لاستمرار المظاهرات، والاعتصام بعد خطاب مبارك؛ وحال الانفلات الأمني الرهيب الذي ساد البلاد؛ وكانا لا يكادان يتفقان في رأيٍ حول مبارك خاصة؛ يراه مجاهد شخصًا بلا

رؤيـة؛ يقطـر قطـرًا مـا وجـد عليـه سـلفيه عبـد الناصـر والسـادات، وزاد الأخير إفسادًا؛ أن أصبح في زمانه الكلّ عينيه مفتوحتين لمصلحته فقط، والناس يشبه بعضهم بعضًا في التسلّق والنفاق، وكأن شعبًا بأكمله سُلِبَ فـي لحظـةٍ مـن الـزمن كُـلّ المزيـات!.. وبـات مبـارك قـدوة سـيئة بسـعيه توريث أحد أبنائه الحكم، فقال مجاهد لزوجته وهما يتبعان المشهد:

- أحسبه وعى الدرس؛ بتعيينه عمر سليمان نائبًا لـه؛ وأعتقد أن الله أراد لمصر أخفَّ الضررين؛ فلو أبـى أن يتـرك السلطة إلا أن يعهد بهـا لولـده لكانـت مـذابح، ولخـرج عليـه الشـعب كلـه، وكـان وزوجتـه وولـداه أوَّلَ الهـالكين.. فراحـت تفكـر لأول مـرة وتَعتبِرُ لحديثـه، - وكانـت تـدافع عـن مبارك على خط مستقيم! -.

وشرّ البَلِيَّةِ ما يضْحِكُ!! ففي هذه اللحظة كان يجري علـى شاشـة التلفـاز عرض مجموعة من الخـارجين علـى القـانون بحـوزتهم سرقات ضُبِطوا بهـا؛ كـان جميعُهم جـاثمين، أذرعهم للـوراء، قيدتهم الشـرطة العسكرية، فأبوا أن يتحدثوا إلى المراسل، وحاول بعضهم أخذ وجهه ناحيـة متحاشيًا الكاميرا، والبعض نكَّس رأسه، وظل معتادو الجريمة بملامحهم الصارمة ينظـرون فـي جـرأة وصـمت، إلا شخصًـا تَفَطّـر بالبكـاء، مـا أن اقتـرب المراسل منه حتى انفرط يحكي بالدمع حكايته كذلك:

- كنـت واقفًـا، فـرأيتهم دخلـوا شـالوا وجَـرُوا؛ فـدخلت شـلتُ وجريـت وراءهم، فسأله المراسل:

- ألا تعرف أن هذه سرقة، وأنها أموال ناس؟! فأسرع في نبرةِ صدقٍ، وهو يبكي مستعطفًا بشدة:

- أول مرة والله، وتحروا عنّي.. وطالع في وجه المراسل في رجاء كأنَّه قاضيه الذي إليه إطلاق سراحه.. ففاضت بالدمع عينا مجاهد، وقال يُحدث زوجته:

- لو كنت قاضيه لأطلقت سراحه؛ هذه بَقِيّة من فَطرٌة سليمة..

ويوم الحادي والثلاثين من يناير، بدا أن خطورة المظاهرات قد اختفت، فبدأ ظهور مشكلة أخرى؛ طوابير تَكَدَّست في الصباح أمام المخابز، وبدا الناس في غاية الصعوبة، ولابد من عمل جميع المخابز في كل الأوقات حتى لا تتعرض البلاد لمشكلة؛ وحتى يتم التشكيل الوزاري الجديد، كان قد تم إقالة وزراء لسوء أدائهم، أو لعدم قبول الشارع لهم، فَأقيل بعض من كان يؤدي واجبه بكفاءة أبرزهم؛ وزير الصناعة والتجارة الخارجية "رشيد"، وأُبقيَ على وزراء غير مرغوب فيهم كوزيرة القوى العاملة، ووزير البترول "سامح فهمي"؛ فقال رئيس منظمة حقوق الإنسان لمذيعة البرنامج المسائي الأشهر في حوارها معه:

- عندما أعلن الرئيس عن تعيين نائب رئيس الجمهورية، قابل المتظاهرون الخبر بالتصفيق، والتهليل، والفرح؛ وقالت قناة الجزيرة في نفس الوقت؛

أن الخبر قوبل بالتوبيخ! وقالت تلك القناة: يا ليته ما طلع، ولا تكلم.. ونادوا برحيل مبارك.. فسألته المذيعة؛ فصدق عليها:

- نعم؛ لا بد من وضع آلية للتغيير.. فطاردته:
- أسال كيف ؟.. قال:

(١) حل البرلمان.. فابتسمت تحثه: هي؟ قال:

(٢) تشكيل حكومة إنقاذ وطني.. وحول انسحاب أجهزة الأمن دون التفاوض مع القوات المسلحة أجاب:

- أغلب من حرق مقارّ الحزب الوطني، كانوا من البلطجية الذين كانوا يستخدموهم في الانتخابات، لأنه لا أحد يعرف مكان الأشياء التي سُرِقَتْ إلا إذا كان قد دخل المكان من قبل.. وتداخل صحفي بجريدة الوفد حاضرًا اللقاء:

- عاوزين منافسته!.. وبشأن هروب المساجين من السجون أجاب:

- أنا قاعد في البيت، وسلاحي جاهز، وبجانبي٢٠٠ طلقة، متوقع أن يدخل عليّ بلطجي، أو مجرم في أي وقت.. وأجاب الضيف مقدمة البرنامج في سؤالها عن الفساد:

- في التشكيل الوزاري الجديد قال الرئيس: أطالب بالمحاربة، والمواجهة بكل القوة، والقسوة للفساد بجميع أنواعه على كل المستويات أيًّا كانت.. وأردف:

- السنة القادمة لأكاديمية الشرطة ستكون أقل هيبة، لأن هيبة الشرطة قَلّتْ، لم يعد لهم الهيبة والعظمة.. بعض الضباط يقول: نحن من يتعب؛ نقف دوريات، ونتعرض للخطر، ويقف يومنا بثلاثين جنيهًا، أما مساعدو وزير الداخلية فيأخذون٢٠٠٠٠٠ جنيهًا شهريًّا.. وفي سؤالها حول تغيير النظام أجاب د" فندي" على لمْزها للنظام:

- تغيير النظام يعني؛ تغيير المنظومة ككل، وليس شخصًا معينًا؛ إن لم نصل إلى درجة احترامنا لأنفسنا لن يحترمنا أحدٌ.. فطاردته:

- وللخروج من هذه الأزمة؟ فاستطرد:

- تحقيق مطالب المتظاهرين، والتخلي عن شَخْصنَةِ المشهد، ودراسة الفجوة بين المطالب والمواقف؛ ولابد من الفصل بين الوزير المهنة، والفرْعنة؛ الناس تطالب بتغيير الرئيس لأنه بعيد، لا تطالب بتغيير رئيس مجلس إدارة؛ إنما للصبر حدود.. أمَّه نعيمة؟ نعمين، هو رئيسنا فين؟! قُولُوا له! قولُوا له! قولوا له الحقيقة أبو عيون جريئة.. الضيف يترنَّم بمقطع أغنية تندرًا على مبارك؛ فانفجرت المذيعة في ضحكتها المجللة، وصوتها الفضي الأخّاذ تُدهشُها المفاجأة لنجاحها في استدراج الضيف وولوجه حيث أرادت..

وعلَّمت التجربة مجاهد أنّه لو كان مُستقبلًا من أمره ما اسْتَدبر، ما أطلع امْرأة ما على نقطة ضعفٍ له أبدًا؛ فالمرأة إنْ ركبت لن تنزل؛ والذنب حينئذ

ذنبُه.. فابنة أخيه؛ حبيبة أمّها فاطمة؛ الأنثى على ذكرين لمّا عَنَّفها والأولاد الذين يحضرون معها درس القرآن على الضوضاء، مكثت في عنادٍ تضرب برِجْلها الأرضَ كلما صعدت السُّلَّمَ أو نزلت؛ ولأن نَعْلَها خَشَبٌ يفرقع بِشَكل مُزعج جدًا.. اتصل بالتليفون على بيت أخيه:

- السلام عليكم يا أم فلان؛ أنا فلان، ابعثي لي فاطمة.

- فاطمة نائمة؛ زوجة أخيه بنبرة مُستنكفة؛ فَغَضِبَ:
- أنا سامِعُ البُنَيَّةَ تتحدث معك! تمنعين بُنية من عَمّها؟!
- يعني، أنا بَكْذِبْ، يا حاج فلان ؟!.. وَتَرْكًا للجَدَلِ؛ قال:
- عمومًا، عندما تصحو البنية قولي لها: عَمُّك يَطْلُبكِ؛ وأنا قاعد في البيت لن أخرج؛ فقالت:
- بصراحة يا حاج فلان، فاطمة تخاف منك، لَوْ قُلْتُ لها؛ لن تنزل.
- لأجل هذا أطلبها للتفاهم، متى صَحَتْ قولي لها: عَمُكِ يريد التحدث معك.. فنادت ابْنَها الأكبر، فأعْطَتْه سماعة التليفون:
- خُذْ كلم عَمَّكَ.. فأعاد طلبه على ابن أخيه:
- عندما تصحو فاطمة ابعثها لي، قُل لها؛ عمك يريد التحدث معكِ.. فأجاب الشاب في أدبٍ جمٍّ:
- حاضر يا عم..عندما تستيقظ، أُرْسُلُهَا لحضرتك.

فظل في مرقده، وكان قد استيقظ على قَرعِ البنية الشديد لِسُلَّمِ البيت وهي تهبط، فراح يقرأ؛ يُفرّجُ عن نفسه ويهدّئ من غضبه، وأذنه على الباب؛

فسَمِعَ قرعًا لطيفًا للباب لم يسمعْ قَبْلَهُ خشخشة نعلٍ، فهبَّ مُشفقًا، وحَزَرَها البنية، وأنها في شِدة خوفٍ، فسأل في رفق:

- مـَنْ؟

- فاطِمةُ يا عم.. فأسرع بفتح الباب؛ وكان قد حرص على أن يحمل في يده الكتاب الذي كان يقرأه، ليشعرها أنه في شغْلٍ فتطمئن ولا تَرْهَب.

دخلت البُنَيَّة مُنْكَمِشَةٌ إلى النّصفِ تمشي على أطراف أصابعها فَرَاعَهُ ذلك، فأخذها تحت جَناحِهِ، وسار بها، وأسرع يحدثها ليذْهِبَ عنها الرَّوْعَ:

- ماذا يا فاطمة؟ أنا عمُّكِ الذي يُحِبُّكِ كأبِيك تمامًا وابتسم، بل أظنَّني أُحِبُكِ أكْثرَ منه، أتصدقين؟! أنا لا أُرِيدُكِ إلا في أحسن صورة يحبها الله، ويراكِ الناس عليها.. وقال:

- أنا طلَبْتُكِ لنتحدثَ معًا؛ أعرف مِنْكِ أولًا ما الذي يغضبك مني؟ وأُعَرّفُكِ بالذي يَجْعَلُني آخذ على خاطري منك؟ فأجابت في براءةٍ:

- وهل أحدٌ يغضب من عمه؟! الولد حسام والبنت شيماء، هُما من كانا يجريان على السُّلم، فقُلتُ لهما هـ أقُولُ للأستاذ.. فلم يسمعاني وظلا

يجْريان وراء بعضهم بعضًا على السُّلمِ؛ قالت كذلك.. فقال يشير لها إلى مضجعه:

- أرأَيْتِ كيف ينام عمك؟! على الأرض منفردًا في حجرةٍ بعيدة عن الأصوات، أضعُ زوج من الوسائد فوق أذني، أتعلمين لِمَ؟! لأن لو جاءني صوت من الشارع، أو تقلَّب جنبي إنسان؛ ولو كان امرأة عمك لَصَحَوْت؛ عُمُّكِ نومه خفيف جدًا يا فاطمة، هكذا خلقني الله فماذا أصنع؟! أرجع من العمل فأحتاج أن أنام وَلَوْ ساعة حتى أستطيع أن أُعي ما أقول، وأفهمُ ما أقرأ.. تعلمينَ، يوما الاثنين والثلاثاء عندي درس؛ أسبوع وأسبوع، ويوم الأربعاء من كل أسبوع؛ درسي لجدتك الحاجة، وعَمَّاتك، ونساء مِنَ الجارات؛ أنا أجلس إلى الناس أكلمهم، والناس لا ترحم؛ لابد أن أَزِنَ كُلَّ كلمة وأفْهمْ، وهذا يحتاج إلى نومٍ، ومِزاجٍ رائقٍ وهدوءِ أعصابٍ، انظري إلى حال عمك!.. وأخبرها بأسىً:

- أتعلمين أني كنت نائمًا، فأيقظني قَرع نعلك؟! أنا أعلم أنّكِ تحاولين السير بهدوء؛ ولكنَّا نعْجبُ لهؤلاء الصُّنَّاع! يصنعون أحذية نعلها خشبًا فتحدث ضوضاءَ شديدةً؛ وليست هذه النعال الخشبية مؤذية للآخرين فقط! بل لصاحبتَه التي تسير فيه، لأنه نعلٌ عالٍ صَلْد يؤذي القَدَمَ والظهر معًا؛ فأجابت في براءة:

- أَبيه أحمد - أخوها الأكبر - قال لي..النعل العالِي يؤذي الظهر.. قال:

- لأجل هذا بحثت في السوق عن نعلٍ غير مزعجٍ؛ انظري؟.. - واستخرج نعلًا جديدًا - اشتريته من يومين بخمسة وعشرين جنيهًا ولم ألبسه بعد، حَرِصْتُ أن يكون ليّنًا؛ جلدًا كي لا يفرقع؛ فيحدث ضوضاءً تفزع الناس؛ ولولا درس الغْدِ لنزلت معك الآن لأشتري لك حذاءً مثله، بدلًا من هذا الخشب الذي تلبسين؛ مَهْمَا مَشَيْتِ بهدوء أحدثَ فرقعة، فآذيتِ عَمّكِ وهو ينام، لكن أعط النقود هذه أباكِ؛ أكيد يعلم مقاسك جيدًا، ليشتري لكِ حذاءً جلدًا كعبه ليس عالٍ؛ أمَّا هذه؛ خمسة جُنيهاتْ فهي لكِ، فأنا منذ زمنٍ لَمْ ألقكِ، ولَمْ أعطكِ شيئًا؛ ومد يده إليها بالنقود، فاسْتَحْيَتْ:

- عندنا نقود، والله يا عم.

- يا فاطمة، نُقُودُ عُمّكِ نقودكِ؛ وعَمُكِ كأبيكِ؛ ثم إنّي من تسبب في الخسارة، وأطلب منكِ أن لا تلبسي هذا النعل السيئ؛ فعندنا في الشريعة؛ من تسبب في شيءٍ، جاز أن يُنسبَ ذلك الشيء إليه؛ فهذه النقود حقك؛ خذي، خذي.. فأجابت:

- جزآك الله خيرًا يا عمّ؛ وأخذتها، فأردف في رحابةِ صدرٍ:

- إذا أغضبك عَمُّكِ في شيءٍ، تعالي فحديثه؛ فإن وجد لك حقٍ أعطاكيه، واسترضاكِ..

هنا فُتح باب الشقة ودخلت زوجته؛ فأقبلت فوقفت في فتحته باب الحجرة تَرْمُقه، وتنظر إلى البنية دون كلمةٍ؛ فاستدرك، وابتسم في كياسةٍ؛ وقال يحرضها على التحية:

- سلمي على فاطمة.. فقالت في نبرةٍ معوجةٍ تبكّته:

- سلمي على فاطمة؟! وتابعت تذكّر البنية بذنبها تمط المدّ مطًّا:

- سلاماااات يا ست فااطمة ؟!.. وسألت في شكٍ عما يحدث في غيبتها؟!.. فاستدرك للبُنية يلطّفُ:

- على فكرة؛ امرأة عمك تحبك؛ وإن كانت آخذة على خاطرها منكِ بسبب الموضوع الذي تحدثنا فيه؛ ولو فعلت معكِ شيئًا ليس لها فيه حق تعالي آخذ لك الحق منها؛ وإن كان لها الحق أخذناه منك.

هنا رنَّ جرس التليفون.. وهاتفه ابن أخيه، يسأله عن حال البنية معه، وَيُعْلِمُ أن عندها الآن درسًا؛ فأجابه:

- فاطمةُ عَسَلٌ؛ عرفت أن عمها يُحِبُها، وعالجنا ذلك الخوف وتفاهَمنا معًا، وهي الآن صاعدة إليك..

وغادرت البنية؛ فغبرت له الزوجة سحنتها.. فقال:

- تصلح شأنًا، فتعْوجُ شؤونًا؟!.. وسألها:

- ما لك؟؟

لم تُجب؛ فاسترضاها، فقَصَّ تفصيلَ ما حدث في غيابها؛ فكشفت عن سبب غضبها المفاجئ:

- كيف تسوّي بيني وبين عيّلة؟ أيّ شرع هذا الذي يُؤاخذُ فيه الصغير الكبير، ويعاقبه؟!

- يا شيخة؛ أنا قلت ما قلتا استدراكًا لفعلكِ، دَخْلْتِ فلم تكلمي البنية وهي ضيفتنا، فعالجت الموقف حتى لا تحمل في صدرها منكِ.

- بل يجب أن تؤنَّب لما شغالة علينا نازلة تَدِبُ وطالعة تدب؛ ولا أحدَ يقول لها عيبًا.

- طلبتها فحضرت، وعالجت معها الموضوع.. قالت:

- وتفتكر ها تستجيب؟!..قال:

- ما على الرَّسُولِ إلا البلاغُ.

وبعد يومين؛ لمَّا مرّ بأمّه، وكان راجعًا من المسجد فخضعَ يُسلّم عليها، وكانت جالسةً أمام الدكان، فاستخرجت في تَحَسُّب شيئًا مدت يدها إليه به؛ فمد يده وأخذه مهموما؛ كانت طَيَّةَ النقود؛ الخمسة والعشرين جنيهًا

التي أعطاها البنية منذ يومين، فتغير وجهه؛ وصلته فحوى الرسالة إلا إنه لم يعقّب؛ فتحدثت أمّه تلطُّف للموضوع:

- أعطاهاني أخوك، وقال: الخمسة جنيه التي أعطيتها مصروفًا لفاطمة تركها لها، وأعطاني باقي النقود لأعطيها لك؛ فأخذه وانصرف يغضب في نفسه؛ ولما دخل الشارع لمح ابن أخيه الأكبر داخلًا البيت فناداه، وقال في حَزْمٍ؛ وأعطاه النقود:

- إذا أعطيت البنيةَ، أو أعطيتكم شيئًا؛ فلا يُرد عليّ؛ وبَيَّنَ.. ليس معنى أن أخصكم بشيءٍ أن الوالدين عاجزان عن النفقة عليكم؛ أنا من طلب من البنية أن تطرح عنها ذاك النعل الخشبي؛ وَشَرْعًا؛ من تسبب في شيءٍ، جاز أن يُنسب ذلك الشيء إليه.. فَتَقَبَّلَ ابْنُ أخيه منه النقود قبولًا حسنًا.. وقال في أدبٍ جمٍّ:

- جزآكم الله خيرًا يا عَمُّ.. فقال وقد ذهب غضَبُهُ:

- وجزآك..

* * *

و"ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكنَّ اللهَ رَمَى"..

مُبارك يتنحَّى عن الحكم بهذه السهولة؟!.. اجتاحت الدهشة، والفرحة العارمة، وصيحات عدم التصديق المتظاهرين؛ تاريخ لا ينسى يوم الحادي عشر من فبراير ٢٠١١م أُخِذَ مجاهد أخذًا، وكان من القاعدين عن التظاهر في البيوت؛ من حزب الكنبة، وهمّ السواد الأعظم حينها؛ وتساءل أيفرح؟! أم يحزن؟! وكان للحزن أقرب؛ إشفاقًا من المجهول، لمْ تعدم مصر رئيسًا سِنين طويلة!.. وتابعَ اللواء/عمر سليمان؛ يعلن من مقر رئاسة الجمهورية بيانًا أذاعه التلفزيون المصري على الهواء مِرارًا:

بسم الله الرحمن الرحيم؛ أيها المواطنون، في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد؛ قَرَّرَ الرئيس محمد حسني مبارك، تخليه عن منصب رئيس الجمهورية، وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة؛ إدارة شئون البلاد، واللهُ المُوفِقُ والمستعان.

تلي نائب الرئيس هذا الكتاب القصير واقفًا عند مقاطعه، متابعًا بنَظرةِ شُموخٍ وصرامة، إلا أن النَّبرة كان ملؤها الحزن العميق، ففاضت من الفرحة والدهشة معًا عينا مقدمة البرنامج المسائي الأشهر لانفراج الأزمة العصيبة التي عصفت بالبلاد، ومجيء الفرج كهذا سريعًا!.. وتحدثت مفطورة تبكي، وهي التي شاهدها مجاهد - بالأمس القريب - غاضبة عندما أعلن الرئيس أنه يرفض الإذعان

لمطلب المحتجين، وبعض القوى السياسية، بالرحيل عن الحكم؛ وأنه لم يكن ينتوي الترشح للانتخابات المقبلة، ولم يكن في يومٍ من الأيام طالب سلطة، وأنَّه تفانى في خدمة مصر خلال فترات الحرب والسلام، ويشعر بالفخر بإنجازاته على مر السنين في خدمة مصر وشعبها، وأنَّه سيعمل لفترة الشهور القليلة المتبقية من ولايته، على الحفاظ على الاستقرار، ذلك تمهيدًا لنقلٍ سَلِسٍ للسلطة: "هذا عهدي إلى الشعب خلال ما تبقى من ولايتي كي أختتمها بما يرضي الله، والوطن، وأبناءه".. وخطته؛ أنه يدعو البرلمان بغرفتيه قريبًا لمناقشة إصلاحات عميقة على الدستور، تشمل مادتي ٧٦؛ ٧٧ بما يتيح توسيع قاعدة الترشح لزعماء أحزاب المعارضة، والمستقلين؛ وإنه فضّل مخاطبة الشعب، بعد أن رفضت القوى السياسية والمعارضة عرضًا للحوار، وأن مصر بلاده، وهي المكان الذي عاش فيه، وقاتل، ودافع عن أراضيه، وسيادته، ومصالح أبنائه، وأنه سيموت على أرضه..

جاء الخطاب ليضيف غموضًا يحيط بتسلسل الأحداث وتلاحقها، فماذا بشأن مشروع التوريث؟ فهل تعهده بعدم الترشيح ينسحب على نَجْلِه؟... وكان التلفزيون المصري الرسمي قد أعلن عن الخطاب قبل ساعتين من إذاعته، فجعل أنظار العالم في حالةِ ترقبٍ وتَكَهُّنٍ لما يمكن أن يحتويه، خصوصًا بين جموع المتظاهرين في ساحة التحرير، الذين تفرقوا إلى أماكن مختلفة لمشاهدة الخطاب،

وبدا أن البعض يعتقد بأن الخطاب سيكون حول التنحي؛ وحين جاء الخطاب مُتَوقعًا ومنطقيًّا لدى مجاهد، ومتابعي الأحداث، ممن يعرفون شخص مبارك، قام المعتصمون في ميداني التحرير في القاهرة، والشهداء في الإسكندرية برفضه والهتاف بسقوط مبارك؛ فقالت هذه المذيعة عينها لضيفها تعجب من التمسك بالسلطة حتى الرمق الأخير!:

- أسَمِعْت يومًا عن وزيرٍ تركها إلا أن يُقالَ؟!

- ربما حدث من وزيرٍ سابق "عصام شرف"؛ وزير النقل والمواصلات في إحدى الوزارات السابقة. فجعلت تُشكّكُ:

- الناس تسأل عن الضمان للوفاء بهذا التعهد؛ فقد يتم الالتفاف عليه ونفاجأ بما كان يحدث في العهود السالفة؛ يخرج علينا من حيث لا نحتسب من يطالبه بالبقاء؟ - تشير لما حدث عندما تنحى عبد الناصر فخرجت الجماهير هادرة تعيده للسلطة -.

- حالة عبد الناصر حالة مختلفةً؛ الرجل كانت له شخْصية طاغية على الجماهير.

- الناس تقول: طوال ثلاثين سنة ونحن نسمع وُعُودًا، ولم تَعُدْ تُصَدّقُ، ويريدون ضمانًا.

- يا أستاذة مُنى الميادين والشوارع لا تزال مفتوحة؛ والذي خرج من القُمْقُمْ لن يعود.. أجابت:

- الناس تخشى العَوْدَ إلى الخنوع، والإحباط سريعًا ما يدْرِكها فقد لا تستطيع تجميع هذه الحشود ثانية؛ ألا تعتقد أن القرار السياسي بطيء، دائمًا تأتي الاستجابة للمطالب متأخرةً؟ وبعد ضغط؟! خرجت المظاهرات في ٢٥ يناير، فلم يأتِ خطاب الرئيس إلا يوم ٢٩ ليحل الحكومة، وَيَعِدُ بحل المشكلات بعد جمعة الغضب؛ وبعد مضي ثلاثين سنة من التساؤل عن سبب عدم تعيين الرئيس نائبًا له، يأتي اليوم ليعين نائبًا؟ فتستمر المظاهرات في التحرير رافضين تعيين نائب للرئيس؛ ودائمًا نعجز عن الحصول على المعلومة، أو إجابة شافية، ويختفي المسئول في الوقت الذي يكون خروجه لحديث الناس واجبًا؟ فأجاب الضيف:

- نعترف؛ بأن هناك بطئًا، وارتباكًا عند متخذ القرار السياسي؛ لذلك سقف المطالب في تزايد.. عَيَّنَ مبارك "عمر سليمان" نائبًا له، فخرجت هتافات في ميدان التحرير تقول: لا مبارك ولا سُلَيْمان؛ كُلّ هذا كان زمان.. وتابع يؤكد:

- حَسْبَما الدستور، لا يمكن لنائب الرئيس حَلُّ مجلس الشعب، أو حَلُّ الوزارة، أو طَلَبُ تعديل الدستور؛ هذا من سلطات الرئيس. وأعتقد أن الرافضين للخطاب لا يَدْرُونَ عن ذلك، لذلك هم ثائرون٠٠

فقامت في اليوم التالي العديد من المظاهرات الشعبية تؤيد خطاب الرئيس في عددٍ كبيرٍ من المدن المصرية، كما تَمَّ عودة خدمة الانترنت في جميع أنحاء البلاد؛ بعد توقف دام خمسة أيامٍ، وكان الاعتصام الذي يقيمه مناهضو الرئيس في ميدان التحرير قد دخل يومه الرابع عشر؛ ومنع المعْتصِمُون الجيش المصري من فتح أهم مُجمع حكومي في التحرير، رافضين عودة الحياة الطبيعية إلى هذا الشريان الحيوي في قلب القاهرة، مُصرّين على إبقاء الضغط على السلطات بالتوازي مع الحوار الذي أُطْلِقَ بين الحكومة، وبين عدد من الشخصيات وممثلي أحزاب المعارضة؛ وخرج بعض المعتصمين من ميدان التحرير، وأقاموا حاجَزَيْنِ بَشَرِيْين على طرفي مدخل المجمع؛ مانعين الموظفين من الدخول إليه، ووقف عشرات الموظفين وراء الأسلاك الشائكة للجيش بانتظار تطور الوضع ومعرفة ما إذا كانوا سيتمكنون من الدخول؟

كان مبارك قد اجتمع بالحكومة الجديدة؛ حضر الاجتماع نائبه "عمر سليمان"، والدكتور "أحمد شفيق" رئيس الوزراء الجديد، ورئيس مجلس الشعب، ورئيس مجلس الشورى، ووزير الدفاع والإنتاج الحربي المشير.

وتلاحقت الأحداث؛ فرضخت السلطات المصرية في اليوم التالي لإرادة الشباب، وأطلقت سراح الناشط "وائل غنيم" الذي اختفى على أيدي قوات الأمن قبل اثني عشر يومًا، فأسرعت مقدمة البرنامج الأشهر باستضافته

عندها، ليكون أول ظهور له على الهواء من خلال برنامجها المسائي، فجلس يقص تجربته.. ويعود لوائل غنيم تأسيس صفحة على موقع " فيس بوك"؛ "كلنا خالد سعيد" التي لعبت دورًا مهما في إثارة الاحتجاجات التي اندلعت في الخامس والعشرين من يناير الشهر الماضي؛ فأكد في كلمة وجهها إلى المتظاهرين في التحرير:

- لن نتنازل عن مطلبنا في زوال النظام، ولن نستسلم.

على الرغم من إشادته أنه لم يتعرض لسوء معاملة من الأجهزة الأمنية، إلا أنه ظل فترة اعتقاله مَعْصُوبَ العينين، مُتَّعَرّضًا للاستجواب؛ لمحاولة معرفة الجهة التي وراءه، ويعمل لحسابها؟.. كانت زوجته أمريكية، ويعمل مصممًا لبرامج الكمبيوتر في دولة الإمارات، يمتلك فيلا بها؛ وفي إشارةٍ من المذيعة إلى المتظاهرين الذين قُتلوا أجاب:

- لست بطلًا؛ الأبطال هم الذين استشهدوا؛ الأبطال هم فلانٌ، وفلانٌ، وفلانٌ، وفلانٌ؛ وانفطر في بكاء متواصل لينهض فجأةً.. وحاولت المذيعة استبقائه دون جدوى؛ فتركها على الهواء في حيص بيص؛ وخَلَّفَ البرنامج، ومقدمته، وهرول خارجًا..

كانت وسائل الإعلام الخاصة كلاعب مجيد محرك للأحداث؛ قد رَوَّجَت أن مبارك سيعلن تنحيه عن السلطة نهائيًّا في خطاب يتلوه مساء العاشر من فبراير؛ وبعد انتظار حَذِر من الشعب المصري، وملايين من الشعوب

العربية؛ خرج مبارك ليعلن تمسكه بالسلطة حتى نهاية ولايته الحالية، مع تفويض صلاحيات الرئاسة لنائبه، وكان الخطاب الذي ألقاه في العاشرة والنصف قد تضمن:

الأخوة المواطنون، الأبناء شباب مصر وشبّاتها، أقول لكم قبل كل شيءٍ؛ إن دماء شهدائكم، وجرحاكم لن تضيع هدرًا؛ وأؤكد أنني لن أتهاون في معاقبة المتسببين بها - موقعة الجمل - بأقصى ما تقرره أحكام القانون من عقوبات رادعة؛ أقول لكم: إن استجابتي لصوتكم، ومطالبكم هو التزام لا رجعة فيه، وإنني عازم كل العزم، على الوفاء بما تعهدت به، بكل الجدية والصدق.. إن هذا الالتزام ينطلق من اقتناع أكيد بصدق ونقاء نواياكم، وأن مطالبكم مطالب عادلة، ومشروعة؛ فالأخطاء واردة في كل نظام سياسي في أي دولة، لكن المهم هو الاعتراف بها، وتصحيحها في أسرع وقت ممكن، ومحاسبة مرتكبيها؛ وأقول لكم: إنني كرئيس للجمهورية لا أجد حرجًا، أو غضاضة أبدًا في الاستماع لشباب بلادي، والتجاوب معه؛ لكن الحرج كل الحرج، والعيب كل العيب - وهو ما لمْ ولنْ أقبله أبدًا - أن أستمع لإملاءات أجنبية تأتي من الخارج أيّمّا كان مصدرها وذرائعها - يعني مطالبة وزيرة الخارجية الأمريكية له بالتنحي الفوري- الأبناء شباب مصر، الأخوة المواطنون؛ لقد أعلنت بعبارات لا تحتمل التأويل عدم ترشحي للانتخابات الرئاسية المقبلة مكتفيًا بما قدمته من عطاءٍ للوطن لأكثر من٦٠عامًا في الحرب والسلام؛ أعلنت تمسكي بذلك، وأعلنت تمسكًا مُماثلًا، وبذات القدر، بالمضي في النهوض بمسؤوليتي في حماية الدستور، ومصالح الشعب حتى

يتم تسليم السلطة والمسؤولية لمن يختاره الناخبون في شهر سبتمبر المقبل؛، في انتخابات حرة ونزيهة؛ ذلك هو القَسَمُ الذي أَقْسَمْتُه أمام الله والوطن، وسوف أحافظ عليه حتى نبلغ بمصر، وشعبها بر الأمان؛ لقد طرحت رؤية محددة للخروج من الأزمة الراهنة، ولتحقيق ما دعا إليه الشباب والمواطنون، بما يحترم الشرعية الدستورية، ولا يقوضها، وعلى نحوٍ يحقق استقرار مجتمعنا، ومطالب أبنائه؛ ويطرح في ذات الوقت إطارًا مُتَفَقًا عليه، للانتقال السلمي للسلطة، من خلال حوار مسئول بين كافة قوى المجتمع... تسهر على ضمان تنفيذه قواتنا المسلحة الباسلة؛ لقد بدأنا بالفعل حوارًا وطنيًّا بناءً، يضم شباب مصر الذين قادوا الدعوة إلى التغيير، وكافة القوى السياسية... هذا الحوار قد تلاقى حول تشكيل لجنة دستورية تتولى التعديلات المطلوبة في الدستور، وما تقتضيه من تعديلات تشريعية، كما تتلاقى حول تشكيل لجنة للمتابعة تتولى متابعة التنفيذ... وإنني تجاوبًا مع ما تضمنه تقرير اللجنة من مقترحات، ومقتضى الصلاحية المخولة لرئيس الجمهورية وفقًا للمادة ١٨٩ من الدستور، فقد تقدمت اليوم بطلب تعديل ست مواد دستورية هي المواد ٧٦ و٧٧ و٨٨ و٩٣ و١٨٩ فضلًا على إلغاء المادة ١٧٩من الدستور..وتستهدف هذه المواد ذات الأولوية؛ تيسير شروط الترشح لرئاسة الجمهورية؛ تحقيقًا لتداول السلطة، وتعزيز ضوابط الإشراف على الانتخابات....إن مصر تجتاز أوقات صعبة لا يصح أن نسمح باستمرارها؛ فيزداد ما ألحقته بنا وباقتصادنا من أضرار وخسائر يومًا بعد يوم، وينتهي بمصر إلى أوضاع، يصبح معها الشباب الذين دعوا إلى التغيير أول المتضررين؛ وأثقُ أن الأغلبية الكاسحة

من أبناء الشعب يعرفون من هو حسني مبارك، وَيَحِزُ في نفسي ما ألاقيه اليوم من بعض بني وطني...واقتناعًا منّي بأن مصر تجتاز لحظة فارقة تفرض علينا جميعًا تَغْليب المصلحة العليا للوطن، وأن نضع مصر أولًا فوق كل اعتبار آخر؛ فقد رأيتُ تفويض نائب رئيس الجمهورية في اختصاصات رئيس الجمهورية على النحو الذي يحدده الدستور.. وأقول من جديد: أنني عشت من أجل هذا الوطن، حافظًا لمسؤوليته وأمانته، وستظل مصر هي الباقية فوق الأشخاص وفوق الجميع.

وكانت مراسلة أمريكية شهيرة قد طلبت مقابلته بعد إشاعة أشيعت عن هروبه وأسرته إلى دولة عربية، وهو الآن مقيمًا بها فأذيع من قصر الرئاسة على الهواء اللقاء تكذيبًا للادعاء.. قالت المذيعة الأمريكية:

- ألم تسمع الشتائم والسباب من بعض المتظاهرين؟

- مصلحة البلد، وأمنها عندي أهم من ذلك.

- إلى أي بلد تذهب بعد انقضاء فترة الحكم؟

- سأظل في بلدي، ولن أتركها، وسأموت على أرضها.

كان مجاهد قد تحول عن تلك الفضائية الخاصة؛ عندما قامت مقدمة البرنامج الأشهر تستدرك على الخطاب تحرّض ضيفها؛ فانتقدها وقال لزوجته:

- هذه تظل تبحث عن الإثارة، توقظُ الفتنةً.. وذهب لفضائية أخرى، وبرنامج إخباري يقدمه زوج من المذيعين أحدهما عنصر نسائي، والآخر صحفي سابق، كانت المذيعة مراسلة سابقة لرئاسة الجمهورية لعدة سنوات، تتبع مبارك أينما حل؛ تبعث رسائلها للتلفزيون المصري قبل أن يُعَيَّنَ متحدثًا رسميًا باسم رئاسة الجمهورية؛ فقامت والصحفي بتقديم هذا البرنامج الإخباري، فوجد مجاهد في ضيافاتهما - ولأول مرة في التلفزيون المصري الرسمي - داعية المنصورة الشهير، وكان ممنوعًا من دخوله، وكان مبارك قد أعلن في مناسبة؛ أنه لن يمكن للسلفية أن تسود البلاد، وإذ بالمشهد يرتبك؛ ليلة الإعداد لمليونية التحدي، لحمل الرئيس على التنحي .. فاستضاف مُقدما البرنامج هذا الداعية ليبعث إلى شباب ميدان التحرير برسالة تهدئة عاجلة فسألته المذيعة:

- فضيلتك نزلت إلى الميدان، وحاولت محادثة الشباب فتم الاعتداء على فضيلتك؟

- لم يتم الاعتداءُ عليَّ؛ ولكن هذا الشباب الرائع الذي قام بهذه الثورة البيضاء المجيدة، الذين علموا العالم أجمع كيف تكون الثورة بيضاء سلمية، بينهم من قرر ألا يستجيب لنداء العقل؛ وأخشى ما أخشاه أن تزحف هذه الحشود الغفيرة إلى القصر الجمهوري، فيتحول المشهد إلى مذبحة، ويقع الاشتباك مع قوات الحرس الجمهوري التي تؤمن قصر الرئاسة، وتسيل الدماء الطاهرة الزكية؛ فقال مجاهد لزوجته:

- بل ذهب للميدان فَشُتِمَ، وتعرض لمحاولة اعتداء لسابق مقاله عن تظاهر الشباب يوم الخامس والعشرين؛ أنهم قلة قليلة يريدون حرق الوطن؛ وخروجًا على الحاكم المسلم، والشريعة تأمر بطاعة ولي الأمر في العسر واليسر، ولا تُجيز الخروج عليه ولو كان ظالمًا، إلا في حالة واحدة، أن يكفَر. وَبدلًا من أن يثبت؛ ركب الموجة؛ ويعتبر بكلامه هذا مُحَرّضًا على الخروج على الحاكم المسلم.

- فضيلة الشيخ حسَّان، ماذا تحب أن تبعث لهؤلاء الشباب؟ خاصة وقد اسْتُجِيبَ لكثير من مطالبهم، وهم يصرون على رحيل الرئيس، والآن، وتعريض البلاد لمزيد من الفوضى؟

- يا أستاذة هناء أطالب الرئيس أولًا؛ بعدم العناد، والتخلي عن هذا الصلف، والتواضع، والاعتراف بالأخطاء، والنزول للحديث المباشر مع هؤلاء الشباب؛ وتأكيده للوعود التي قطع؛ وأقول للشباب إياكم، وهذه المذبحة، فلن يكون هناك كاسب وخاسر، بل سيكون الكل خاسرًا، وستقود الناس إلى مزيد من الأحقاد وستشعل نار الفتنة؛ هكذا نكون نحن بأيدينا قد قمنا بتنفيذ المخطط الأمريكي الصهيوني، الذي يستهدف إلى تقسيم المنطقة العربية؛ فمشروع الشرق الأوسط الكبير الذي تم إعداده منذ سنوات لا يخفى على عاقل، فلا نمنحهم فرصة تطبيقه على أرض الواقع؛ وتمزيق كيانات كل دولة إلى دويلات صغيرة لمصلحة العدو الصهيوني؛ إن مصر غالية على أبنائها، تنتظر منهم التكاتف ونبذ التناحر.

فتلاحقت الأحداث؛ وتوجه متظاهرون إلى مقر رئاسة الجمهورية من أماكن متفرقة، وقرروا الاعتصام أمامها.. فاقترح مُقدما البرنامج على فتاة من المتظاهرات استضافاها بعد الداعية؛ عمل برنامج؛ يكون معها فيه تِسْعَةٌ من الشباب من جميع الأطياف، وعمل حوار معهم بحضور كبار المسئولين لسماع مطالبهم والحوار معهم، وقال المذيع على عُجالة للفتاة في نهاية الحوار:

- وماذا أنتم فاعلون في غدٍ ؟.. قالت:

- الشباب غدًا نازلين ميدان التحرير للتعبير عن مطالبهم بشكل سلمي؛ سنحافظ على بلدنا، وسنمنع أي فرد يريد التخريب، ونحن من يتصدى له.

واتصل البرنامج بفتاة من الميدان فقالت:

- لي عتاب أوجهه لسيادة الرئيس؛ كان عارف بثورة ٢٥يناير، لِمَ لم يقم بتغيير جاد، وإجراءات لإرضاء الشباب ومنع ما حدث؟ الأحزاب والبرادعي حبوا يستغلوا ثورة الشباب السلمية، على سبيل المثال؛ جاء البرادعي يوم ٣٠ يناير للمتظاهرين خمس دقائق، وانصرف لأنه لم يتحمل الغاز، وما نحن قاعدون فيه منذ عدة أيّام! هناك قافزون على المشهد؛ هناك تصميم من المتظاهرين على رحيل الرئيس غدًا؛ فضرب "سيد علي" كفًّا بكفٍ لا يدري ما يفعل!.. واتصلت دكتورة بالبرنامج:

- أقترح للتواصل مع الشباب الموجودين في المظاهرة - وهم شباب تلقائي - طيارة هليوكوبتر عليها قوات مسلحة تدنو من الأفراد عليها لافتة: الشباب الواعي برجاء الانصراف؛ هناك مندسون لتخريب البلد.. فاتصل آخر:

- لا بد أن نتعلم حركات الاتزان في الشخصية.. يستطيع واحد أن يدخل وسط الدهماء ليحرك مليونًا، ولكن لا تستطيع مطلقًا أن تسيطر عليهم؛ دائمًا الحروب في الأمم تبدأ بطلقة.. فجاءت للبرنامج رسالة مُفادُها:

- لا بد أن نمنع حظر التجوال ليمتد طوال اليوم؛ رسالة للزعيم: لا يمكن أن ينكر رصيد هذا الرجل أحد؛ الصُّورةُ لم تصل إليه حقيقيةً؛ القبطان آخر واحد ينزل من المركب؛ ربنا يمنحه الصحة، والقدرة على مقاومة هذه الأهوال؛ جهاز الشرطة عمل مؤسسي ضخم، فيه خيانة، إذا نزل الفارس عن جواده لا ينبغي أن أبارزه. اخْتَلَطَ كُلُّ شيءٍ اختلاط هذه الأحاديث؛ وقُدّرت أعداد المتظاهرين الذين توجهوا ناحية القصر الرئاسي بثلاثة آلاف شخصٍ، كما حاصر عشرات الآلاف مبنى التلفزيون القريب من ميدان التحرير، الذي تتولى حراسته قوات من الحرس الجمهوري؛ وكان المجلس الأعلى للقوات المسلحة قد أعلن بالأمس البيان الثاني:

نظرًا للتطورات المتلاحقة للأحداث الجارية، والتي يتحدد فيها مصير البلاد، وفي إطار المتابعة المستمرة للأحداث الداخلية والخارجية، وما تقرر من تفويض للسيد نائب رئيس الجمهورية من اختصاصات، وإيمانًا من

مسئولينا الوطنية بحفظ واستقرار الوطن وسلامته؛ قرر المجلس الأعلى للقوات المسلحة ضمان تنفيذ الإجراءات الآتية..

أولاً: إنهاء حالة الطوارئ فور انتهاء الظروف الحالية، الفصل في الطعون الانتخابية، وما يلي بشأنها من إجراء التعديلات التشريعية اللازمة، وإجراء انتخابات رئاسية حرة ونزيهة، في ضوء ما تقرر من تعديلات دستورية.

ثانيًا: تلتزم القوات المسلحة برعاية مطالب الشعب المشروعة، والسعي لتحقيقها من خلال متابعة تنفيذ هذه الإجراءات في التوقيتات المحددة بكل دقة وحزم، حتى يتم الانتقال السلمي للسلطة، وصولًا للمجتمع الديمقراطي الحر، الذي يتطلع إليه أبناء الشعب.

ثالثاً: تؤكد القوات المسلحة على عدم الملاحقة الأمنية للشرفاء، الذين رفضوا الفساد، وطالبوا بالإصلاح؛ وتحذر من المساس بأمن الوطن والمواطنين؛ كما تؤكد على ضرورة انتظام العمل بمرافق الدولة، وعودة الحياة الطبيعية حفاظًا على مصالح وممتلكات شعبنا العظيم.. حمى الله الوطن والمواطنين.

وكان رئيس مجلس الشعب قد خرج في تصريحٍ له لقناة العربية الإخبارية:

- إن من يطالبون الرئيس مبارك بالتنحي، لا يدركون أن الرئيس إذا تنحى الآن سيتم انتخاب رئيس جديد وفقًا للمادة ٧٦ القديمة، بالإضافة للمادة ٨٨ والتي لا يوجد بها إشراف قضائي. ونبَّه؛ التعديل الدستوري سيضمن انتقال السلطة بطريقة أفضل لصالح الشعب، والمادة ٧٦ من الدستور المصري، التي تحدد شروط انتخاب رئيس الجمهورية الشباب غير راض عنها؛ التعديل الدستوري سيغيرها، وسييسر اختيار رئيس الجمهورية، وتابع؛ إن التعديل الدستوري سيحقق الإشراف القضائي وبالتالي؛ فإن بقاء الرئيس حتى نهاية مدته، أصبح شرطًا حتى يتم التعديل الدستوري، ولتحقيق آمال الشارع في تعديل الدستور.

فَسُئل عن الضامن لتحقيق هذه التغييرات؛ والشباب لا يثق كثيرًا في هذه الوعود؟.. فأجاب:

- إن المجلس الأعلى للقوات المسلحة، هو الضامن الرئيسي لتحقيق هذه التغييرات.

وحول ما يتعلق بالتوقيت فيما يخص النظر في الطعون، وإقرار التعديلات الدستورية؛ أفاض رئيس مجلس الشعب كفقيه دستوري، وكأستاذ جامعي سابق مرموق:

- التعديل الدستوري سيبدأ مجلس الشعب النظر فيه من الأسبوع القادم، ويستغرق كحد أدنى شهرين ونصف طبقًا للدستور؛ وفي خلال هذه الفترة

عندما تأتي الطعون الانتخابية للمجلس، سيصحح عضوية أعضائه؛ المحكمة الدستورية العليا في ١٩ مايو عام ٢٠٠٠ أكدت أن كافة قرارات مجلس الشعب قبل أن يُقْضَى ببطلانه تعتبر صحيحة قانونيًّا.

فقال مجاهد لزوجته المرابطة إلى جواره للأحداث مثل الملايين يحدثها عن الانفلات الأمني والفوضى:

-مواطنة أعطاها الكمسري في القطار تذكرة بـ ٧ جنيه؛ فأعطته خمسة فقط؛ وقالت:

- والله ما أنا دافعة إلا كذا، وتابع مهمومًا؛ وفي أتوبيس للنقل العام؛ مجموعة من الشباب ركبوا ونزلوا، ولم يدفعوا الأجرة، فضحك الركاب، لأن الكمسري لمْ يقل لهم ادفعوا؛ وتركهم نزلوا !! ..

* * *